تمظهرات الأنا والآخر في الخطاب السردي الجزائري المعاصر قراءة في رواية "عناق الأفاعي" لعز الدين جلاوجي

Manifestations of the Ego and the Other in the Contemporary Algerian Narrative Discourse
A Reading of the Novel "The Embrace of Snakes" by Azzeddine Jellaouji

ط.د عبد العظيم نعجة 1،*، د. العايش سعدوني 2
1جامعة قالمة .الجزائر، abdeladhimnaadja@gmail.com
2جامعة قالمة .الجزائر ، saadouni.laiche@gmail.com
مخبر الدراسات اللغوية والأدبية جامعة 08 ماي 1945 قالمة

تاريخ الإيداع: 2023/04/15 **تاريخ المراجعة**: 2023 /12/28 **تاريخ النشر**: 2023/12/30

ملخص:
تسعى هذه الدراسة البحثية إلى معالجة قضية الأنا و الآخر في الخطاب السردي الجزائري المعاصر، باعتبارها من أكثر القضايا الفلسفية والثقافية المعقدة التي كانت ولازالت تشغل اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين، بدءا بالوقوف عند مفاهيمها الاصطلاحية، وإشكالياتها، ورصد علاقتها بالعلوم الأخرى كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع و الدين، كما تهدف إلى الكشف عن تمظهرات ثنائية الأنا والآخر وأشكال حضورهما وجدلية العلاقة بينهما اعتمادا على المقاربة الثقافية، وذلك من خلال رواية "عناق الأفاعي" للروائي الجزائري "عز الدين جلاوجي " الذي يؤسس لمشروعه السردي الجديد ويعتبره ملحمة سردية كبرى تجمع بين التاريخي والثقافي والحضاري والإنساني.

الكلمات المفتاحية : الأنا، الآخر، جدلية، الرواية الجزائرية،المقاربة الثقافية.

Abstract:
This research study seeks to address the issue of the ego and the other in the contemporary Algerian narrative discourse, as one of the most complex philosophical and cultural issues that have been and still occupy the interest of writers, critics, and scholars. Starting with at its terminological concepts and problems; monitoring its relationship to other sciences such as philosophy, psychology, science, society and religion. It also aims to reveal manifestations of the duality of the ego and the other, the forms of their presence, and the dialectic of the relationship between them, depending on the cultural approach, through the novel "The Embrace of Snakes" by the Algerian novelist "Azzedine Jellaouji", who establishes his new narrative project and considers it a major narrative epic that combines the historical, the cultural, the civilizational and the humane.

***Keywords**: the ego, the other, dialectic, the Algerian novel, the cultural approach.*

*المؤلف المراسل .

تقديم:

تعد قضية الأنا والآخر من أهم المسائل والقضايا التي تناولتها الرواية العربية كونها الوعاء الكبير الذي يحتضن الواقع بكل أشكاله وظواهره، وباعتبار الرواية أيضا موطن الأديب الذي يعبر فيه عن ألامه وآماله وقضاياه ورؤاه، فكانت تيمة الأنا والآخر من بين اهتماماته، سيما وأنها تعتبر من إفرازات النقد الثقافي، ومن الموضوعات التي ركزت عليها نظريات ما بعد الحداثة اللذان احتضنتهما الكثير من الدراسات النقدية وتناولتهما العديد من النتاجات الإبداعية في الساحة الأدبية، حيث لا يمكن ذكر طرف دون ذكر الطرف الآخر أي هناك تلازم بين الأنا أو صورة الذات في مقابل صورة الآخر، وحضور أي منهما يستدعي حضور الآخر بالضرورة، حيث لا يمكن للذات أن تحقق وجودها وتستشعر مكانتها وموقعها إلا في وجود الآخر الذي قد يكون مصاحبا مساعدا لها أو منافيا مصارعا لها بأي شكل من الأشكال، و يعدّ الروائي الجزائري "عز الدين جلاوجي" أحد أبرز الأقطاب الروائيين الجزائريين الذين حاولوا تقديم لمسة إبداعية مغايرة للرواية الجزائرية، إذ لم يتبن التيار التقليدي في كتاباته، بل سعى إلى إرساء مشروعه السردي الجديد القائم على التجريب وكسر القواعد السائدة، وهذا ما نلاحظه في مسردياته وأعماله الإبداعية كمسردية "الأقنعة المثقوبة" و"حب بين الصخور " ورواية "الرماد الدي غسل الماء و"هاء وأسفار عشتار"وصولا إلى رواية "عناق الأفاعي" التي تناول فيها - بشكل مكثف وماتع - موضوع الأنا والآخر الذي تعددت أشكال حضوره بين التاريخ والهوية والكولونيالية انطلاقا من مرجعيات ثقافية وإنسانية مختلفة، وعليه نطرح الإشكالية الآتية: ما المقصود بالأنا؟ ما مفهوم الآخر؟ ما علاقتهما بالعلوم الأخرى؟ فيم تجسد حضورهما من خلال الرواية وهل أسهم ذلك في إبراز القيمة الفنية والجمالية للسرد ؟

قبل الولوج إلى عوالم الرواية والغوص في تفاصيلها واستنباط تجليات الأنا والآخر فيها يجدر بنا الوقوف في البدء عند المفاهيم اللغوية والاصطلاحية لهما وشرحها فيما يأتي:

أولا: الأنا والآخر-المصطلح المفهوم:

الدلالة اللغوية للمصطلحين "الأنا والأخر"

الأنا:

إن المتتبع لمصطلح الأنا في مفهومه العام يلحظ أن لديه مرادفات كثيرة تقابله (الهو/الذات/الشخص) وإذا حاولنا استنباط مفهومه في المعجم اللغوي (أ/ن/ا) فإننا نجد أن العرب قد أولت عناية بالغة لهذا المصطلح، وقد وظفوه في أشعارهم وحكاياتهم وبطولاتهم تعبيرا عن الاعتزاز بالنفس أو الذات العربية والإعلاء من شأنها.

ورد في لسان العرب أن: " للعرب في أنا لغات، وأوجدوها أنك إذا وقفت عليها قلت أنا بوزن عنا...ومن العرب من يقول أنا فعلت ذلك فيثبت الألف في الوصل ولا ينون.

وقال العديل فيمن يثبت الألف:

أنا عدل الطعان لمن بغاني أنا العدل المبين، فاعرفوني ! [1]

وفي موضع آخر قال الجواهري: " وأما قول أنا فهو اسم مكني، وهو للمتكلم وحده، ويبنى على الفتح فرقا بينه وبين أن التي هي حرف ناصب للفعل ...كما قال:

" أنا سيف العشيرة، فأعرفوني. جميعا، قد تذريت السناما"[2]

ب الآخر:

جاء في القاموس المحيط أن: " الآخر: خلاف الأول، وهي بهاء، والغائب، كالأخير، وبفتح الخاء: بمعنى غير، ج: بالواو والنون، وأخر، والأنثى أخرى وأخراة، ج: أخريات وأخر، والآخرة والأخرى: دار البقاء"[3]

عطفا على ماسبق يمكننا القول أن مصطلحي الأنا والآخر قد نالا حظهما الوافر من اهتمام العرب القدامى سيما في أبرز المعاجم العربية كلسان العرب وقاموس المحيط ومعجم العين وغيرهم، وهذا يدل على كثرة استخدامها وتوظيفها في الأشعار والقصص والخطب ولغة التخاطب اليومية.

2. الدلالة الاصطلاحية لمفردتي الأنا / الآخر:

إذا أردنا تحديد الدلالة الاصطلاحية للأنا والآخر يمكننا الإشارة أولا إلى أنهما من أكثر المفاهيم تشابكا وزئبقية وتعقيدا، إذ بينت العديد من الدراسات الفلسفية والنفسية والسوسيولوجية أنه من الصعوبة بما كان تحديد مفهوم دقيق للأنا / الآخر نظرا لتضارب العلاقة التي تجمعهما ثارة وتحسنها تارة أخرى.

الأنا: ego

تترجم لفظة " الأنا " إلى لغات متعددة، ففي " الفرنسية Moi، Il وفي الإنكليزيةself، I وفي اللاتينية Ego ".

[4]

كما تأخذ كلمة "أنا" عند فلاسفة العرب معنى وجوديا، فهي تدل على " جوهر حقيقي ثابت يحمل الأعراض التي يتألف منها الشعور الواقعي، سواء كانت هذه الأعراض موجودة معا أو متعاقبة... قال (رويه كولارد) : إن لذاتنا وآلامنا وآمالنا ومخاوفنا وجميع إحساساتنا تجري أمام الشعور كما تجري مياه النهر أمام عيني المشاهد الواقف على الشاطئ." [5] ويقصد بذلك أن الأنا ميزة داخلية وجدانية مستقلة بذاتها وجوهر راسخ، وشبكة من الحالات الإنفعالية التي تنتاب صاحبها.

الآخر: l'autre

تدل لفظة " الآخر" على الغير، أو المختلف، أو المغاير، فالأنا يقابلها الآخر الذي قد يماثلها وقد يختلف عنها، وبواسطته يتحدد موقعها والغاية من وجودها،

نقول:" الآخر " the other، هو الآخر، he alse، وآخر another, else, one more, further[6]

ما يمكن استنتاجه أن مصطلحي " الأنا والآخر" يحمل كل واحد منهما مدلولا خاصا به لكنهما متلازمتين مترابطتين، إذ يفرض حضور أحدهما وجود الآخر بالضرورة الذي يحقق كينونته وموقعه من العالم كالذات والغير، الشرق والغرب، المسلم والكافر، الذكر والأنثى، وهي بمثابة تصنيفات عنصرية فرضتها الحضارة الغربية لتضمن مركزيتها وسيطرتها على الشعوب العربية لتشعرها بشيء من الدونية.

ثانيا : إشكالية الأنا والغير في الفكر العربي المعاصر :

تعتبر قضية الأنا والآخر من بين القضايا الفكرية والوجودية والتاريخية التي تثير دائما تساؤلات وقلق الدارسين، وتحتل مكانة من اهتمام المبدعين، فيتناولونها في منجزاتهم الإبداعية، ذلك أن علاقة الأنا بالآخر علاقة جدلية أزلية ومتجذرة في أعماق التاريخ والوجود الإنساني، فمرة يشوبها الصراع والتوتر ومرة تكون حميمية وطبيعية، فإذا عدنا إلى العصر الجاهلي مثلا فإننا نجد ملامح هذه الثنائية بارزة في المجتمع العربي كصراع الفرد مع القبيلة والتمرد عليها، وصراع المرأة المقهورة المهمشة أمام الرجل الذي كان سيد الموقف والقرار، وكذا علاقة الذات العربية مع الطبيعة الجغرافية وعلاقة الأدباء والشعراء مع الحكام والسلاطين في العهدين الأموي والعباسي.

أما في العصر الحديث ومع توسع الثقافات واحتكاك المجتمعات، وتطور وسائل الإعلام والتكنولوجيا ازداد ارتباط الأنا بالآخر فظهر ما يسمى بصراع الحضارات والأديان بسبب كثرة التنقل والترحال -سيما مع حضارتي الشرق والغرب- إذ يرحل المثقف العربي إلى الغرب بغية طلب العلم والاكتشاف فيجد نفسه أمام عام جديد، ثقافة جديدة، دين جديد، ومجتمع مختلف،"مما يتطلب تفعيل وسائط وأساليب الحوار بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية للبحث عن قواسم مشتركة تجمع بينهما، ودراسة كيفية تقديم الذات العربية "الأنا" إلى الغرب " الآخر" الأنا الذي يبحث عن خصوصيته الثقافية والحضارية ولكنه محاصر في الوقت نفسه بفضاء لايعترف بحق الاختلاف والخصوصية." [7]ومن هنا تأتي إشكالية الصراع بين الذات العربية القلقة الخائفة على سقوط ثقافتها وتمزق هويتها والآخر الغربي الذي يسعى إلى فرض السيادة والمركزية والتفوق وجعل الذات العربية تحت الوصاية والتبعية. ويربط الناقد (محمد عابد الجابري) إشكالية العلاقة بين الأنا والآخر بعامل النهضة، إذ يجد تناقض موقف العرب من الغرب "مصدره وبواعثه في التناقض الذي يشكل قوام الحضارة الغربية الحديثة: التناقض بين كون الغرب حاملا للواء الحرية والديموقراطية ناشرا للعلم مدافعا عن حقوق الإنسان، وبين كونه المستعمر للشعوب، المستغل لخيرات ومصادر القوة فيها، القامع لحركات التحرر."[8] وعليه سيتورط العربي في إرساء مشروع نهضته تجاه الآخر الغربي المتناقض والمتنكر خلف عباءة الإنسانية والتعايش السلمي ليحقق مصالحه ويحافظ على نفوذه الفكري والثقافي والسياسي أمام بقية المجتمعات الأخرى.

ثالثا : صورة الذات والآخر في العلوم الأخرى:

لقد احتلت ثنائية الأنا /الآخر مساحة وافرة من اهتمام شتى المجالات والحقول المعرفية على اختلاف توجهاتها وخلفياتها ونذكر أهمها :

من منظور الفلسفة :

تعد الفلسفة أم العلوم لأنها تركز في مباحثها في الغالب على العقل والمنطق والسلوك الإنساني، فقد سلطت الضوء على دراسة الذات بوصفها جوهر الإنسان التي من خلالها يدرك طبيعته وموقعه والغاية من وجوده في ظل حضور الآخر الذي يكمل سيرورة حياته من خلال شبكة العلاقات والمؤثرات التي تجمعهما، فكانت الفلسفة تطرح دائما تساؤلا وجوديا مفاده "هل معرفة الذات تتوقف على وجود الغير بالضرورة ؟ فتعددت المواقف واختلفت بين من يقر بتلاحم الأنا والغير وبين من يعارض ذلك ويؤكد بانفصالهما.

ولعل من يناشد توافق الذات مع الآخر الفيلسوف الألماني هيغل hegel بقوله "إن الذات حينما تنغمس في الحياة لا يكون وعيها وعيا للذات، فوعي الذات لنفسها يكون من خلال اعتراف الغير بها، وهذه عملية مزدوجة، وتستمر العلاقة بينهما في إطار جدلية السيد والعبد، وهكذا يكون وجود الغير بالنسبة للذات وجودا ضروريا." [9] ومنه لا يمكن فصل الأنا عن الآخر لأن كلاهما يحقق الغاية الوجودية النفعية للآخر. أما سارتر sartre فينفي وجود علاقة تجمع بين الذات والغير ويعتبر اتحادهما جرما وجحيما، إذ يقول :"مجرد ظهور الغير في عالمي وقيامه بالنظر إلي فإنه يحولني من ذات إلى موضوع، ويشاركني الوجود ويفسد علي وحدتي ويسلب مني حريتي." [10]بمعنى أن الآخر يشكل عائقا وخطرا يهدد استقرار الذات ووحدتها وحريتها، وعليه لايمكن اجتماعهما.

من منظور علم النفس:

لقد اهتم الكثير من علماء النفس بدراسة الإنسان وشخصيته والمكونات السيكولوجية والقضايا المتصلة بالذات والآخر في سياق تأسيس النظرية النفسية لمفهوم الذات والغير، ولعل من أبرز هؤلاء – أدلر كومبز، وليام جيمس، فرويد وغيرهم .

يربط فرويد freud مفهوم الأنا وتشكلها بالمشاعر الوجدانية والإدراكات الحسية والغرائز، بالإضافة إلى المؤثرات الخارجية التي تكون بمثابة الآخر الذي يؤثر عليه سلبا أم إيجابا، إذ يقول :"وينشأ الأنا من إدراك الغرائز ومن التحكم فيها، ومن إطاعة الغرائز وقمعها، ويتم جزء كبير من هذا الإنجاز على يد الأنا المثالي الذي هو في الحقيقة عبارة عن تكوين رد فعل بصورة جزئية ضد العمليات الغريزية في الهو." [11]فالتحليل النفسي يشير إلى وجود علاقة بين الأنا والغريزة، بين الأنا العليا والعمليات الغريزية في الهو التي تسبب قلقا واضطرابا للذات، وتنشأ ردة فعل مضادة إما بالاستجابة أو القمع.

من منظور علم الإجتماع:

إن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، تحكمه جملة من النظم الإجتماعية كالعادات والتقاليد والطقوس التراثية والقوانين الوضعية التي تسطرها الحكومة، فهو جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي يشعره بإنتمائه وتحديد مساره وتقويم سلوكاته، لذلك فقد اهتم علم الإجتماع بدراسة كل ما يتعلق بهوية الفرد وانتمائه وعلاقاته اتجاه الآخر المختلف عنه طبقيا وفكريا وعقائديا، كون الإنسان عنصرا أساسيا ينخرط في عمليات اجتماعية مع أخيه الإنسان، فتنشأ بينهما علاقات متباينة تفضي إلى المنازعة والمشاجرة، المنافرة والمؤالفة، الصداقة والعداوة.

ولعل أبرز عامل يساهم في تكوين الفرد ونموه العقلي والنفسي ويحدد إطاره السوسيولوجي هو الأسرة، ومنه فإن " تخارج الذات مرتبط بالبيئة المحيطة وما بها من موضوعات، والمتمثلة في الأسرة أولا، ولا نعني في هذا الصدد الأسرة من الناحية البنيوية فقط، ولكن بالأحرى الناحية الوظيفية التي تحفظ لهذا الكيان نسقا يتم في سياق عملية التفاعل بين الذات والآخر في علاقة تبادلية". [12]إذ تلعب الأسرة دورا هاما في إدراج الذات ضمن أنشطة تفاعلية كثيرة كعلاقة الفرد بالأم والأب والإخوة إلى أن ينفتح أكثر على المجتمع، ويؤدي حقوقه وواجباته كمواطن عامة وبكونه ذات لها هوية غير منسلخة عن مجتمعها ووطنها خاصة.

من منظور الثقافة العربية الإسلامية:

إذا نظرنا إلى موضوع الأنا والآخر من زاوية دينية عقائدية فإننا نجد أن الثقافة العربية الإسلامية قد احتضنته وتناولته بشكل لافت ومستمر، وذلك من خلال الكشف عن صورة الأنا مع الآخر وقبوله ومحاورته من مبدأ الإنسانية، وإن كان الغرب ينظر إلى الشرق نظرة استحقار وإقصاء ودونية فإن رؤية الإسلام إلى الآخر تختلف، فهي رؤية كونية مستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية التي تدعوا إلى غرس قيم التعاون والتضامن والتآخي والمحبة بين الشعوب، بالإضافة إلى " نبذ كل النزعات الجاهلية الشعوبية الإنشطارية... ومن هذا المنطلق فإن تلك الأمة مفتوحة أمام كل إنسان يقبل ليعيش فيها على قدم المساواة كمسلم أو كمعاهد، ويتوحد في ظل هذا التصور دور الدولة والمجتمع ليتمثل في الارتقاء بكرامة الإنسان بما أنه إنسان". 13وعليه فالأمة العربية الإسلامية ذات طابع شامل يرحب بجميع الشعوب على اختلاف أطيافها وألوانها وديانتها في إطار تعزيز مبدأ التعايش السلمي بين الذات والآخر، وفي حدود ما يسمح به الشرع الإسلامي ولا ينافي قواعده وضوابطه.

رابعا: تمظهرات الأنا والآخر في رواية "عناق الأفاعي":

تعد رواية عناق الأفاعي للأديب الجزائري (عز الدين جلاوجي) واحدة من بين الروايات التي أخذت تشق طريقها نحو التجريب وطرح البديل، ومعالجة تيمات ثقافية وحضارية وإنسانية بعيون حداثية، معتمدة في ذلك على مرجعيات تاريخية وتراثية يبين من خلالها الروائي تخييله السردي، فتكتسي الرواية بأحداثها وحبكتها وشخصيتها بعدا عجائبيا وثقافيا ماتعا، وهي الرواية التاسعة لجلاوجي ضمن ثلاثية "الأرض والريح" حيث جاء الجزء الأول بعنوان "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر" وجاء الجزء الثاني بعنوان "الحب ليلا في حضرة الأعور الدجال" في حين برز الجزء الأخير من الثلاثية بعنوان "عناق الأفاعي" والتي سنسعى في هذه الدراسة إلى مقاربتها والكشف عن تمثلات الأنا والآخر فيها.

استلهام التاريخ كمادة مشكلة للأنا والآخر:

يمثل التاريخ المرجعية الأساسية الأولى التي يعتمدها الروائي في صناعة المتخيل السردي، ذلك أن التاريخ يعبر عن نمط حياة ويوميات وبطولات وثقافات الشعوب في عصر من العصور، فيعيد السارد نقله وتصويره للقارئ ضمن لعبة السرد، وليكشف بذلك عن طبيعة العلاقة بين الذات والغير في سياقها الكرونولوجي مبرزا الغاية الجمالية من وراء ذلك، فالتاريخ "هو رواية ما كان، والرواية تاريخ ماكان يمكن أن يكون". 14 أي أن السرد يحاكي ماكان سابقا ويصف مايجوز أن يكون.

إذا غصنا في ثنايا الرواية - محل الدراسة - فإننا نجد حضورا جليا لثنائية الأنا / الآخر من خلال النسق التاريخي، إذ يعود بنا السارد إلى حقبة زمنية مهمة وهي بداية المقاومة الجزائرية (الذات المناضلة) للإحتلال الفرنسي (الآخر المستعمر) وحمل كل جزائري حرّ راية الدفاع عن الوطن وحماية ثوابته القومية والدينية والاجتماعية.

يقول السارد على لسان "إبراهيم آغا": "أوامر الله حكم مولانا وعزه، لم يرغب فينا هؤلاء إلا لضعف فيهم، ولم يقدموا لنا الولاء والطاعة إلا لما رأوا قوتنا وبطشنا. لقد احتلهم الإسبان ردحا من الزمان وانتهكوا

أعراضهم... حتى أنجدهم الإخوان بربروس عروج و خير الدين" [15] .فيرد السارد على لسان " الداي حسين" بكل ثقة:

"وهم لن ينسوا لنا هذا الفضل، لن ينسوا أن دماء أجدادنا سالت على هذه الأرض من أجلهم، وسنستمر نحن الأحفاد في حكمهم، اطمئن لن يكون منهم إلا الولاء." [16]

من هنا يظهر توظيف الروائي لملامح الحقبة الاستعمارية وشخصيات تأخذ طابعا تاريخيا كالأخوان عروج وخير الدين بربروس، وشخصية الداي حسين الثورية كمظهر عن إعلان الذات الجزائرية عن نضالها تجاه الآخر المستعمر، والتشبث بالأرض والحنين إلى الأجداد، فمن لا تاريخ له لا حاضر له ولا مستقبل.

الهوية بوصفها تجليا للأنا والآخر:

يدل مصطلح "هوية" على كل ما يرتبط بجوهر الإنسان وثوابته وانتمائه وعرقه ولغته، مما يجعل منه كائنا يحظى بحريته وكيانه واستقلاليته وموقعه أمام الآخر الذي يختلف عنه على المستوى الثقافي والديني والحضاري، إذ يسعى جاهدا إلى الحفاظ على تلك الثوابت من الاندثار، ورفض منطق الإقصاء الذي يفرضه الوجود الغربي لبسط نفوذه والسيطرة على مجتمع الشرق.

لقد نالت ثيمة الهوية حظها الوافر من الاهتمام من قبل الباحثين والدارسين - سيما - مع تصاعد موجة الدراسات الثقافية التي ركزت على التحليل الثقافي للمجتمعات الإنسانية في إطارها السياسي والحضاري والعقائدي، كما هتف الكتاب والمبدعون على توظيفها في منجزاتهم الإبداعية تعبيرا عن مواقفهم ورؤاهم وعلى رأسهم الروائي (عز الدين جلاوجي) لذلك " فمقاربة مسألة الهوية لا تتم إلا في ظل عمليات التفاعل بين الأنا والآخر، وكما يرى فرانسوا غويزو فإن سؤال الهوية ليس من أكون، بل من أكون بالنسبة للآخرين ومن هم الآخرون بالنسبة لي." [17]وعليه لا يمكن تصور حضور للهوية منفصلا عن حضور الغيرية.

إذا عدنا إلى الرواية فإننا نستشف تمظهر الأنا والآخر مجسدا في الهوية العربية الإسلامية تجاه الآخر الغربي الكافر في قالب سردي أكثر دينامية وإثارة، إذ يقول السارد على لسان شخصية "أبو حمزة القرطبي": "الأقرب إلى الله أن نحمي ديار الإسلام من مخاطر الأعداء، والأقرب إلى الله أن تقول كلمة حق في وجه سلطان جائر." [18]فيرد " شيخ الإسلام " قائلا: " إن الله يدافع عن الذين آمنوا يا أبا حمزة، ولا جور في هذه الأرض منذ غلب عليها بربروس وأخوه بالسيف إلى حكم سيدي الداي حسين، وهي تنعم بالأمان والرخاء طيلة ثلاث مئة سنين أو يزيد." [19]

ويقول السارد أيضا في مقطع آخر على لسان "منارة" : "أخاف عليك من شياطين الإنس، من النصارى واليهود المتربصين بنا، ضحك الداي حسين في ثقة وقال: قوتنا عظيمة في البحر، ولن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا." [20]

لقد أجاد الروائي إلى حد كبير في التعبير عن ملامح الهوية العربية الإسلامية ورفضها لكل أشكال التمزق والعبودية والإنحلال، عاكسا لصورة المسلم تجاه اليهودي والنصراني المختلف عقائديا، واصفا إياه بشياطين الإنس ليمرر إلى القارئ دلالة نسقية ورسالة ضمنية مفادها التمسك بثوابت الأمة الإسلامية، والتصدي للآخر

المتشيطن الذي يدعي المحبة والمساواة لنيل مصالحه وأطماعه، فما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة ووحدة الصفوف.

الحب كقيمة إنسانية بين الذات والآخر :

إن الحب هو جوهر الصفات الإنسانية لأنه النور الذي يضيئ ذاتنا قبل أن يضيئ العالم، فالإنسان كتلة من المشاعر والعواطف التي يسعى إلى ترجمتها والتعبير عنها ومقاسمتها مع غيره من بين البشر، وبالحب تمتد جسور العلاقات وتسمو المبادئ والأخلاق وتنهزم الكراهية والبغضاء والنوايا السيئة، لذلك عد الحب شكلا من أشكال حضور الذات والتقائها باللآخر سيما بين الذات الأنثوية والآخر الذكوري، فكانت المرأة ولاتزال الشريك والصديق الأمثل للرجل، تؤنسه وتتقاسم معه أعباء الحياة في إطار إنساني وأخلاقي من خلال "بناء قاعدة من الثقة بين الطرفين، والتي تكون أوثق كلما كانت أعمق، وهذا التواطؤ يتحقق بمعرفة تفاصيل الآخر، وأسلوب تفكيره وتعامله... وهذا الشكل على ما يبدو ينطبق على ما يمكن أن يسمى بالعلاقة السليمة : [21]وبالتالي يؤدي ذلك إلى إنجاح العلاقة العاطفية واستمرارها بعيدا عن التشتت والصراعات.

لعل (عز الدين جلاوجي) من أكثر الروائيين الذين وظفوا ثيمة الحب كشكل من أشكال حضور الأنا في الكتابة السردية، إذ يقول في أحد المقاطع : "انحنى مسرور قليلا ففاح منه عطر نادر، استحبت شامخة إلى الخلف، مد أصابعه يطلب أصابعها فطوت ذراعيها. قال بصوت خافت أنت تعذبينني، لا أريد أن أكرر مأساة مجنون ليلى، دعك من الأوهام دعينا نعش حبنا ونسعد بحياتنا، لقد وهبتنا الأقدار كل شيء فمن الجحود والكفر أن نرفض نعم الله، ألم يقل: وأما بنعمة ربك فحدث؟" [22] ويقول السارد في موضع آخر: "وأنا لا أريد غيرك، أنت آلهتي، أنت عشتارتي، ضحكت شامخة وقالت بدلال: آلهة، عشتار، عاصفة أنا صخر يتحطم عليه الأبطال."[23]

من خلال هذه المقاطع السردية يبرز حضور الذات " الأنثوية " تجاه الآخر "الذكر" جليا في علاقة حميمية وثيقة بين "مسرور" و"شامخة" وقد أبدع السارد في نقلها وتصويرها مستخدما بذلك مصطلحات المعجم الأسطوري مثل "الآلهة" و "عشتار" مما يضفي طابعا عجائبيا تخيليا يزيد المشهد إثارة ومرونة، كما يعمد من خلال هذه الحوارية العاطفية بين الشخصيات إلى تمرير نسق مضمر وهو تكريس ثقافة المحبة والسلام والأدب والرحمة بين الرجل والمرأة ودحض الصورة النمطية التقليدية التي تهمش الأنثى وتقصيها وتجعلها خاضعة للهيمنة الذكورية التي تقمع وجودها وتستغل جسدها.

خاتمة:

وفي ختام هذه الورقة البحثية التي حاولنا من خلالها مقاربة موضوع الأنا والآخر وتمظهراتها في رواية عناق الأفاعي للأديب الجزائري " عز الدين جلاوجي " بالدراسة و التحليل نخلص إلى النتائج الأتية:

تعد قضية الأنا والآخر موضوعا إشكاليا جدليا منذ القدم، كما احتفى به الأدباء والنقاد والدارسون حديثا كذلك لأنه يعبر عن صورة الذات وموقعها وعلاقتها مع نظيرها الآخر الذي قد يتلاءم معها وقد ينفصل عنها لدواعي مختلفة.

ورد في المعاجم والقواميس العربية الدلالة اللغوية والاصطلاحية لثنائيتي الأنا والآخر كلسان العرب، والقاموس المحيط، والمعجم الفلسفي وغيرهم وهذا يدل على اهتمام العرب القدامى وحتى المحدثين بالمعاني التي يحملها المصطلحين وكثرة استخدامهما وتوظيفهما.

تكمن إشكالية الأنا والغير في الفكر العربي المعاصر أساسا في طبيعة العلاقة بينهما، فهي متلاحمة وحميمية من جهة ومتوترة ومنفصلة من جهة أخرى، إذ يفسر هذا التضارب بالتصادم الحضاري والسياسي والطبقي والعقائدي بين مجتمعي الشرق والغرب.

لم يكن حضور الذات والغير مقتصرا في مجال الأدب فحسب، بل حتى في العلوم الأخرى كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والدين، لأن الذات صفة جوهرية لصيقة بالإنسان ويتحدد وجودها ودورها من خلال المجتمع أو الغرائز أو النظم الإسلامية التي تهذبها وتقوي علاقتها بالآخر.

تعتبر رواية عناق الأفاعي لعز الدين جلاوجي ملحمة سردية كبرى غنية بالأنساق الثقافية المتنوعة، كما تمثل مشروعا إبداعيا مختلفا لأنه يجمع بين سردية التراث وتقنيات التجريب، ويكرس لمفهوم الإنسانية، كما يدعو إلى استجلاء القيم الثقافية والحضارية والدينية.

أسس الروائي رؤيته السردية انطلاقا من التاريخ بوصفه شكلا من أشكال حضور الأنا والآخر وذلك من خلال إعادتنا إلى تاريخ الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، واصفا الذات المشحونة بالمقاومة والصمود والتحرر تجاه الأخر المتسلط المستدمر.

تعد الهوية رمزا للذات وانتمائها، ونسقا ثقافيا مهما عمد الروائي إلى توظيفه في الرواية تعبيرا عن حضور الأنا العربي المسلم تجاه الآخر المختلف عقائديا – اليهودي والمسيحي – ضمن علاقة عدائية يمرر من خلالها رسالة ضمنية مفادها التمسك بالوحدة العربية تحت مظلة الإسلام، والتصدي لشيطنة الغرب وإزاحتها.

إن الحب طاقة روحانية عالية، ونور ينير درب الإنسان في علاقاته وحواراته وتفاعله مع أخيه الإنسان، ولذلك وظف السارد بعبقريته السردية ومقدرته الإبداعية الحب كقيمة إنسانية سامية تصف تجليا للأنا والآخر، للذكر والأنثى في علاقة طبيعية حميمية تؤديها شخصيات سردية يرمي من ورائها السارد إلى غرس أواصل المحبة والمودة بين الرجل والمرأة، ونبذ العنف والكراهية والجور بينهما.

يظهر اهتمام الروائي بالأسطورة جليا في الرواية، فنجده يستخدم مصطلحات وشخوص المعجم الأسطوري كالآلهة، عشتار، جلجامش، السندباد.. لبناء عالم متخيل أقرب للعجائبي وفق قالب روائي تجريبي يثير اهتمام القارئ.

هوامش وإحالات المقال

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م13، ط1، دت، ص37.

[2] المرجع نفسه، ص نفسها.

[3] مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، دط،2008 ، ص41.

[4] جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط،1982، ص139

[5] المرجع نفسه، ص نفسها.

[6] روحي البعلبكي، المورد قاموس عربي –إنكليزي، دار العلم للملايين، بيروت، ط07، 1995. ص58.

[7] فارس نورية، إشكالية الأنا و الآخر وعلاقتها بحوار الحضارات. قراءة في طبيعة العلاقة، مجلة الفكر المتوسطي للبحوث والدراسات في حوار الديانات والحضارات، جامعة تلمسان، مجلد 07، العدد02، ،2018، ص2.

[8] محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1 ،1989، ص141.

[9] أحمد مشاشو. عقيلة محجوبي، الأنا والآخر المفهوم والرؤية عبر تاريخ الفلسفة الغربية، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، جامعة سطيف، مجلد 10، العدد02 ،2022، ص9.

[10] المرجع نفسه، ص نفسها.

[11] سيغموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثمان نجاتي، دارالشروق، القاهرة،ط04، 1982، ص89.

[12] محمد سيد خليل وآخرون، صورة الذات والآخر، دراسات في التفاعل الاجتماعي ،دار الحريري، د ب، ج02، دط،1285 هـ، ص155

[13] السيد عمر، الأنا والآخر من منظور قرآني، دار الفكر، دمشق، ط1، 2008، ص73.

[14] محمد القاضي، الرواية والتاريخ دراسات في تخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1، 2008، ص26.

[15] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي. ثلاثية الأرض و الريح، دار المنتهى للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2021.ص35.

[16] المصدر نفسه، ص نفسها.

[17] شهرة بلغول، تمثلات الهوية في الرواية الجزائرية، مجلة الآداب والعلوم الانسانية، جامعة أم البواقي، دع،2015، ص2.

[18] الرواية، ص44.

[19] الرواية ، ص نفسها.

[20] الرواية، ص51.

[21] سعيدة بشار، إشكالية الأنا في الخطاب النسوي الروائي (قراءة في روايتي "أحببتك أكثر مما ينبغي " و " فلتغفري" ل" أثير عبد الله النشمي"، مجلة جسور المعرفة، جامعة قسنطينة، مجلد04، العدد 01، 2018. ص12.

[22] الرواية، ص23.

[23] الرواية، ص24.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م13، ط1، دت،
2. أحمد مشاشو. عقيلة محجوبي، الأنا والآخر المفهوم والرؤية عبر تاريخ الفلسفة الغربية، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، جامعة سطيف، مجلد 10، العدد02 ،2022،
3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط،1982
4. روحي البعلبكي، المورد قاموس عربي –إنكليزي، دار العلم للملايين، بيروت، ط07، 1995.
5. سعيدة بشار، إشكالية الأنا في الخطاب النسوي الروائي (قراءة في روايتي "أحببتك أكثر مما ينبغي " و " فلتغفري" ل" أثير عبد الله النشمي"، مجلة جسور المعرفة، جامعة قسنطينة، مجلد04، العدد 01، 2018.
6. السيد عمر، الأنا والآخر من منظور قرآني، دار الفكر، دمشق، ط1، 2008،
7. سيغموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثمان نجاتي، دارالشروق، القاهرة،ط04، 1982.
8. شهرة بلغول، تمثلات الهوية في الرواية الجزائرية، مجلة الآداب والعلوم الانسانية، جامعة أم البواقي، دع،2015.
9. عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي. ثلاثية الأرض و الريح، دار المنتهى للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2021.

10. فارس نورية، إشكالية الأنا و الآخر وعلاقتها بحوار الحضارات. قراءة في طبيعة العلاقة، مجلة الفكر المتوسطي للبحوث والدراسات في حوار الديانات والحضارات، جامعة تلمسان، مجلد 07، العدد02، 2018.
11. مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، دط،2008
12. محمد القاضي، الرواية والتاريخ دراسات في تخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1، 2008.
13. محمد سيد خليل وآخرون، صورة الذات والآخر، دراسات في التفاعل الاجتماعي ،دار الحريري، د ب، ج02، دط،1285 هـ.
14. محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1 ،1989.